مراحل الارتقاء

الاستنباط يحرر المستعبدين لا الثورة

قد يختلف العلماء في موضوع الارتقاء فيقول بعضهم مع كونت الفيلسوف الفرنسي ان الارتقاء يقطع ثلاث مراحل هي مراحل العقل البشري من اللاهوت الى ما وراء الطبيعة الى العلم . ويقول آخرون مع سبنسر ان الارتقاء كالنشوء امر لا مندوحة عنهُ . وقد نجاري المتشائمين فنقول مع مونتين بان العالم قد انحط واننا لا نثر في انحاء الارض على رجال من طراز بركليس وارستيديس وسقراط او قد نتابع فونتيل حيث يقول « القلب لا يتغير والعقل سائر في طريق الكمال . العواطف اي الفضائل لا تتحول واما المعرفة فآخذة في الازدياد » . اما اذا نظرنا الى التاريخ نظراً شاملاً وجدناهُ خطاً منكسراً يشير الى امم ناهضة وامم ساقطة ولكن الخطَّ المنكسر نفسه يرتفع رويداً رويداً واليك مراتب هذا الارتقاء ملخصة عما اثبتهُ الكاتب الاميركي ول دورانت في كتابهِ الجديد « صروح الفلسفة »

النطق

لا نحسب النطق عملاً تمَّ فجاءةً او هبة منحتها الآلهة للانسان بل احسبهُ عملاً نشأ نشوءاً بطيئاً خلال قرون من المحاولة للاعراب عما يجول في النفس ، من اخراج الصوت لسموة الزوج في عالم الحيوان الى اعلى مدارج البلاغة في الشعر الغنائي . لانهُ لولا الالفاظ او اسماء الجنس ، التي تمكنا من اتخاذ بعض الاجسام امثلة على انواعها ، لبقي عمل التعميم الفكري في مهدهِ ولظلَّ العقل حيث نجدهُ في دماغ الحيوان . ولولا الالفاظ لكانت الفلسفة والشعر ، ولكان التاريخ والنثر ، من المستحيلات ولقصُر الفكر نفسه عن بلوغ دقة اينشتين ودلاقة اناتول فرانس

النار

جعلت النار الانسانَ مستقلاً عن الاقليم ووسعت مداهُ على سطح الارض ومكنتهُ من تقنية ادواتهِ ومهدت لهُ السبيل لطبخ الوف من الاصناف التي لا تؤكل بلا نار . وليس دون ذلك تمكينها اياهُ من الانتصار على الليل وتبديد دياجير الظلام في الساعات التي تنقضي بين الغروب والفجر . تصوَّر ظلمة الليل قبل انتصار الانسان عليها ! ان الخوف من الظلمة لا يزال ماثلاً في اساطيرنا وتقاليدنا

---

(١) هذا بحث يطول وسنفرد له فصلاً خاصاً في عدد تالٍ . فنكتفي بالاشارة اليه . ولبراجع القارىء مقالة « هل في النشوء ارتقاء عند اصحاب علم الجماعة » صفحة ٤٧١ عدد يوليو سنة ١٩٣٠

وقد يكون باقياً في دمنا . فكل غروب كان مأساة تحمل الانسان الاول على ان يأوي الى كهفه حتى الصباح . اما اليوم فاننا لا نأوي الى اسرتنا الا عند الفجر !

فانشاء ملايين من الشموس الصغيرة التي خلقها الانسان (المصابيح) قد حرر النفس من مخاوف الليل وبث في نواحي الحياة نشاطاً وطرباً ومدّ في ساعات العمل المنتج

الفوز على الجراثيم

ان ذاكرتنا سريعة النسيان وعقليتنا بليدة فلا نستطيع ان نحقق الخير العظيم الذي جنيناه من الفوز على الحيوانات المفترسة. ان هذه الحيوانات ، حتى اقواها واشرسها ، اصبحت لعباً بين ايدينا الآن. ولكن جاء على البشر عهد كان فيه الانسان يصيد ويُصاد . فكل خطوة كان يخطوها من كهفه او كوخه كانت مخاطرة وكان مُلْكُ الارض لا يزال نزاعاً بينهُ وبين الوحوش . فالحرب لاخضاع الارض لسيطرة الانسان كانت اعظم حرب في التاريخ البشري. كل الحروب الاخرى ليست سوى نزاع عائلي ازاءها . كانت حرباً بين قوة الجسد وقوة العقل وظلت دائرة الرحى قروناً لا تحصى. فلما انتصر فيها الانسان ، كانت ثمرة النصر التي جناها سلامتهُ على الارض. وهذه الثمرة ما زالت تنتقل من جيل الى جيل مع ارث الماضي، فلا نرى عيوبًا الثور الا وهذه السلامة جانب من محيطنا الطبيعي كقلوبنا وأدمغتنا وأوعيتنا الدموية

الزراعة

كانت الحضارة متعذرة في عصر الصيد والقنص لان الحضارة تقتضي موطناً ثابتاً ومعيشة مستقرة. فالحضارة نشأت مع البيت والمدرسة . والبيت لا ينشأ والمدرسة لا تترعرع حتى تحل ثمار الحقول محل الحيوانات المقنوصة طعاماً للانسان. فالصياد القديم كان يذهب الى قنصه اليومي باحثاً في شقاء وصعوبة عن مواطن الحيوانات ، تاركاً وراءه امرأة تعنى بالتربة الخصبة . وهذه العناية من جانب المرأة هدّأت الرجل باستقلال المرأة عنهُ. فاحتفاظاً بسيادته اقبل على حرث الارض . ومما لا ريب فيه ان قروناً انقضت قبلما تمّ هذا الانتقال العظيم ولكنهُ لما تمّ بدأت الحضارة

النظام الاجتماعي

هنا رجلان يتنازعان . احدهما يضرب الآخر ضربة قاضية ويستنتج من ذلك ان الحيّ منهما كان على صواب وان الميت كان على خطإ — وهي طريقة لحسم النزاع لا تزال متبعة بين الدول في هذا العصر . وهناك آخران يتنازعان فيقول احدهما للآخر دعنا والقتال فقد نقتل كلانا فيه . «لنذهب بنزاعنا الى احد شيوخ القبيلة ونرضخ لحكمه» . تلك كانت لحظة خطيرة في تاريخ البشر. لانهُ لو اجاب الآخر بـ « لا » على قول خصمه لقضى على التوحش بالبقاء . واذا اجاب بـ « نعم » فقل ان الحضارة قد ارسلت جذراً آخر في ذاكرة الانسان يحلُّ النظام محلّ الفوضى

والقضاء محلّ التوحش والشريعة محلّ العنف . وهذه منحة قلما ندرك قيمتها لاننا نولد فنجدها لدى ولادتنا جزءاً من ارثنا الاجتماعي ولا نقدرها حق قدرها الاّ اذا رحلنا الى البلدان المتوحشة في اطراف الارض النائية عن العمران ، حكوماتنا تحافظ على الامن العام محافظة لا نفهم قيمتها العظيمة الاّ متى هبت ريح الثورة او نشبت حرب اهلية عادت بالبلاد الى ادوار الهمجية الاولى . قابل سلامة السفر اليوم بالسفر في اوربا في العصور المتوسطة اذ كانت كل طريق فيها مأْلكاً للصوص وقطاع الطرق . اننا لا نعرف عهداً سابقاً من عهود التاريخ بلغ فيه مدى الحرية مابلغهُ في انجلترا في هذا العصر وما قد يبلغهُ في اميركا يوماً ما ! ما نلوم السياسة وسوء التدبير البرلماني ! فالسياسة ليست كل الحياة بل هي نموٌّ خارجي وتحت مظاهرها المتبدلة تجري تيارات الحياة في الاسرة والمدرسة ، بل في الوف الوسائل التي تحوّل تمردنا الطبيعي الى نية حسنة وتعاون . وعلى غير وعي منا نشترك في هذا الارث الاجتماعي الذي بثهُ لنا مئات الاجيال بطريقة التجربة والامتحان جامعة لنا معارفهُ وناقلة لنا ثروتهُ

الادب النفسي

هنا نمسُّ صميم الموضوع — موضوع الارتقاء . هل يفضل الناس في هذا العصر شعوب القرون الغابرة من الوجهة الادبية ؟ اذا كان الذكاء عنصراً من عناصر الادب فذكاؤنا قد ارتقى . ان متوسط الذكاء العام ارقى الآن مما كان قبلاً . وقد زاد عدد الذين نحسبهم من اصحاب العقول الثاقبة . اما من حيث الخلق فالراجح اننا قد تأخرنا . فدقة التفكير قد نمت على حساب الطمأنينة النفسية . فنحن نشعر في مجلس آبائنا وأجدادنا ، اننا رغم تفوقنا عليهم في عدد الافكار التي حشونا اذهاننا بها ورغم تحررنا من اوهام الخرافات ، نفتقر عنهم شجاعة في اعمالنا ، واخلاصاً في مقاصدنا وقوة في شخصياتنا

اما اذا كانت الآداب تنطوي على الفضائل التي دعا اليها المسيح فقد ارتقينا ارتقاء عظيماً رغم مناحنا واحيائنا القذرة . رغم افلاسنا السياسي . وانغماسنا في الملاذ والشهوات . فنحن اكثر لطفاً وعطفاً حتى لقد بلغت قيمة الاموال التي تبرع بها الاميركيون لمنشآت الاحسان في سنة ١٩٢٨ الفي مليون ريال . وصحيح اننا لا نزال نقبض على القتلة المجرمين فنحاكمهم ونعدمهم ولكن الشك يخامرنا الآن في صحة هذه الوسيلة القديمة من وسائل العدالة . وقد نقصت الجرائم التي يجازى مقترفوها بالاعدام نقصاً كبيراً .

فمن مائتي سنة كان الشنق في انكلترا جزاء من يسرق شلناً . ومن مائة سنة كان المدنبون في اسكتلندا عبيداً يتوارثهم سيّد عن سيّد . وكان المجرمون في فرنسا يعذبون جهاراً توطئة لاعدامهم والمدينون في انكلترا يسجنون مدى الحياة . وكان اناس محترمون يغزون شواطىء افريقيا للاتجار بالعبيد . وكانت سجوننا من نصف قرن كهوفاً مخيفة قذرة بل

كانت مدارس يخرج منها المجرمون الصغار كباراً . اما سجوننا اليوم فأميل الى ان تكون معاهد للاصلاح يجد فيها المجرم اسباب الصحة والتهذيب موفورة مكفولة. اننا لانزال نجور على طبقات الشعب الفقيرة فنأخذ منهم عملاً اكثر مما نعطيها اجراً ولكننا نعزي نفوسنا المضطربة بما نبذلهُ بين هذه الطبقات من اعمال الاحسان الاجتماعي

ونظن ان العنف قد زاد في العالم والشيء الذي زاد انما هو الصحف ! شركات غنية منظمة تبحث في كل نواحي الاجتماع عن الجرائم والفضائح لتبحث بها عن عقول قرائها هموم العمل اليومي والحياة اليتية . انها تجمع كل ما في سياسة القارات من فساد وارتكاب على صفحة واحدة . نظن ان نصف العالم قائم على النصف الآخر يريد قتله وان جانباً كبيراً من الفريقين يحاول ان ينتحر . وشدَّ ما تكون دهشتنا اذ لا نرى في شوارعنا وبيوتنا ومجتمعاتنا العامة وعربات النقل على اختلافها قتلة ولا منتحرين ! بل نرى ادباً جمًّا ولطفاً لا يدركهُ التبجح والاصطناع كادب الرجال الذين كانوا يتعلمون العبارات الفتانة لاستهواء النساء ويقيدون نساءهم بسلاسل الحديد ثم يحاربون لاجل السيد المسيح في الارض المقدسة

ان طريقتنا في الزواج على ما فيها من خلل واضطراب تفوق من وجوه كثيرة الزواج بالقنص او الخطف او الابتياع او الاغتصاب . اننا نجد الوحشية اليوم اقل مما كانت في الصور الخالية بين الرجال والنساء ، بين الوالدين والاولاد ، بين المعلمين والتلاميذ . ان تحرر المرأة وارتفاع مكانتها فوق مكانة الرجل يدلان على سعة من اللطف واللين في الذكر الذي كان قتالاً من قبل . والحبُّ الذي كان في نظر الناس الاولين هجوع الجسد قد ازهر في حديقة من الشعر والعاطفة . فيها ترتفع شهوة الرجل للمرأة ، على رغم تأصلها في حاجة الجسد ، كالبخور الى عالم الشعر الحيِّ . ان خطايا الشباب التي تقلق الكبار يعوَّض عنها بما يتصف به الشباب من الشوق النقي والجرأة الادبية اللذين لابدَّ منهما متى خرج التعليم من دور المدرسة الى رحاب الاجتماع محاولاً تطهير الحياة الاجتماعية من ادرانها

الادوات

في وجه الخياليين ، ودعاة تحطيم الآلات والعود الى احضان الهمجية تنشد السودة الادوات والآلات التي استعبدت الانسان وها هي ذي تحرره . يجب الا نخجل من نجاحنا المادي . لانهُ من الخير العميم ان تكون ضروب الرفاهة التي كانت مقتصرة من قبل على الاعيان قد اصبحت بفضل الصناعة متاحة لمن يشاء . كان لا مندوحة اولاً عن تقليل ساعات العمل واكثار ساعات الفراغ — ولو اسيء استعمالها — قبل نشوء ثقافة عامة تشترك فيها طبقات الشعوب . فهذه المخترعات المتكاثرة

قد اتاحت لنا ذلك . هي اعضاؤنا الجديدة التي نسيطر بها على بيئتنا من غير ان تكون جزءاً من اجسامنا كاعيننا واذرعنا . لأننا نصنعها ونستخدمها ثم ننبذها الى ان نحتاج اليها ثانية. انا نصنع اذرعاً جبارة نبني بها في شهر اهراماً اقتضى بناؤها عمل الوف الوف من العمال في العصور الغابرة . انا نصنع عيوناً ضخمة ترود الفضاء بين النجوم الثانية وعيوناً صغيرة دقيقة تنفذ الى خلايا الاجسام الحية التي لا تُرى . انا نتكلم اذا شئنا بأصوات خافتة من قارة الى قارة فوق البحار والجبال . انا نسير فوق سطح الارض وفي الهواء بتلك الحرية التي اتصفت بها آلهة الاقدمين . نسلم بأن السرعة لا تطلب لذاتها . ولكن معنى العبارة الاسمى انما يقوم في دلالتها على الشجاعة والارادة التي لا تُقهر . لقد مضت علينا قرون كنا فيها مقيدين — كما قيّد بروميثيوس في الاساطير — الى سطح الارض. اما الآن فقد تحررنا حتى اصبحنا نستطيع ان نباري النسر في ملكه.

كلا . ان هذه الادوات لن تسيطر علينا . انخذلانا الحالي امامها امرٌ وينقضي . انهُ وقفة في سيرنا المستمر نحو عمران خالٍ من الاستعباد . لأن العمل الجسدي الذي سُئل باليد والمسود في الازمنة الغابرة قد رُفع عن كواهل انسان وعهد به الى عضلات من الحديد والفولاذ لا تتعب . وقريباً يصبح كل شلال وكل ريح هبٌّ مصدراً تنتكب منهُ القوة المفيدة في المعامل والبيوت ويمسي الانسان حرًّا من كل قيد ليتصرف الى اعمال العقل . ليست الثورات التي تحرّر المستعبدين بل الاستنباط يحررهم

العلم

لقد صدق بكل الى حدّ كبير فيما قال إنما نرتقي في المعرفة وغيرها من المواهب المتصلة باستنارة العقل . حتى — في اشراف البحث الذين لا يتمتعون بالقاب النبلاء وفي المعارك الصامتة التي تدور في معامل البحث العلمي — نقع على صفات جديرة بأن تعدّل ما نراه في السياسة من فساد وفي الحرب من تدمير . هنا الانسان الامثل الذي يخوض الظلمات والاضطهادات في طريقه نحو النور. انظر اليه واقفاً على سطح هذا النيّار الصغير يقيس ويزن ويحلل الكوكبات التي لا يراها — وينبيء بأحوال الارض والشمس والقمر ويشاهد ولادة عوالم جديدة وفناء عوالم قديمة. او انظر اليه رياضيًّا نظريًّا (في الظاهر) يعالج معادلات جديدة في تيهٍ من الارقام والمجهولات الى ان يصل الى نهاية السلسلة فاذا المعادلة تسفر عن استنباط يضاعف قوة الانسان . هذا جسرٌ (كوبري) قوامهُ مائة الف طن من الحديد معلقة على اربعة حبال من الصلب ممتدة من شاطيء الى شاطيء فيروح عليها الناس راكبين وراجلين بمئات الالوف ويغدون. هذا شعرٌ بليغ كأبلغ ما كتب شكسبير. او تأمل هذه البناية المنطادة الذاهبة في الجو منيعة على كل اهتزاز واضطراب بجرأة المهندسين

وتفهم بحساباتهم الدقيقة. وهذه العلوم الطبيعية فيها ابعاد جديدة وعناصر جديدة وجواهر جديدة وقوى جديدة. هنا في الصخور سيرة الحياة مخطوطة بقلمها. هنا في المعامل تستعد العلوم البيولوجية لتغيير وجه العالم العضوي كما غيرت الطبيعيات وجه العالم المادي. انك تقع على العلماء في كل ناحية يدرسون، في غير جلبة ولا ادعاء ولا انتظار للجزاء. انك تكاد لا تدري ما مصدر هذا الانكباب والاخلاص وبما يغذونهما. انهم يعلمون ان الموت مدركهم قبلما تؤتي الاشجار التي يزرعونها ثمارها ولكنهم يمضون في عملهم

بيد ان ما يقال من أن فوز الانسان على الطبيعة لا يجاريه فوز مثله للانسان على نفسه صحيح. ان الحجة التي تؤيد القول بالارتقاء تضطرب هنا وتهن. فعلم النفس لا يكاد يدرك سلوك الانسان وشهواته دع عنك السيطرة عليها وتوجيهها. انه مختلط بجانب كبير من التصوف وماوراء الطبيعة، بالتحليل النفسي، والنزعة المسلكية والاوهام التندية وغيرها من امراض المراهقة. ان الاقوال الرزينة المبنية على العناية والدقة لا يقوم بها الا علماء ندر من تمتع بهم لأن النزعة الدمقراطية في بلادنا والرغبة في الاقوال المتطرفة تحول كل علم الى «موضة». ولكن علم النفس لا بدّ ان يقوى على ما يتصف به من العواصف ويثابر من الادواء ولا بدّ ان ينضج كسائر العلوم بما يأخذه على نفسه من التبعات. فاذا جاءه رجل كباكون ووضع حدوداً لمباحثه وبيّن طرقه واساليبه ووضّح اغراضه وثماره — فمن نا ونحن نعرف مفاجآت التاريخ وصلابة الرجال — يستطيع ان يبين حدود المآتي التي نستطيع ان نجنيها من اتساع معرفتنا للعقل البشري. وقد بدأ الانسان في عصرنا يصرف نظره عن بيئته التي خلقها خلقاً جديداً الى نفسه ليخلقها من جديد

التعليم

ان وسائل نقل اختبارات الماضي المتجمعة آخذة في الازدياد والانتشار. على ان انفاق الاموال الطائلة وبذل العمل المتشعب لتجهيز المدارس واعداد المعلمين يكاد يكون امراً جديداً في العمران. ولعلّه اهم ما يمتاز به عصرنا. كانت الكليات في العصور الغابرة كمالات لا يتمتع بها الا افراد قلائل من طبقات الاغنياء والاشراف ولكن كثرت الآن حتى صار في مستطاع كل من يشاء تقريباً ان يصبح دكتوراً في الفلسفة. اننا لم نتفوق على اعلى مراتب النبوغ في العصور القديمة ولكننا رفعنا مستوى المعرفة العامة فوق كل مستوى بلغه التاريخ في الماضي. لا تسل الآن عن افلاطون وارسطوطاليس ولكنه سل عن المجلس الاثيني الجاهل المتعصب. سل عن النساء المتواريات المستعبدات اللواتي لم يسمح لهن بطلب المعرفة الا اذا اصبحن خليلات الحكّام

الجاهل فقط يشكو من ان العالم لم يولد ولادة جديدة بهذه المدارس المنتشرة والجامعات

المشتركة للجنسين . فاننا اذا نظرنا الى التاريخ نظراً مشارفاً شاملاً وجدنا ان تجربة التعليم العام لا تزال في مهدها . فالوقت الكافي لم يمض عليها بعد لتثبت فائدتها . ايها لا تستطيع ان تزيل في جيل واحد جهل عشرة آلاف سنة واوهامها . بل اننا لا نستطيع ان نجزم الآن بأن الجهل الطامي والتحكم المقوت لا ينتصران على العلم والتعليم بواسطة الاستفتاء !!

ولكن لا نحسب التعليم جمعاً عملاً للحقائق والتواريخ بل اجعلوه وسيلة للاتصال بأعظم الرجال اتصالاً يرفع النفس الى مستوى النبل . لا تحسبوه استعداداً للارتزاق بل احسبوه اتماء لقوى الكائنة في النفس لكي تفهم عالمنا وتسيطر عليه . وفوق كل ذلك احسبوه في اوسع معانيه واكملها وسيلة لنقل التراث العقلي والفني والصناعي والادبي الى اكبر عدد من الناس فيطبع به الجنس الفرد بطابع البشر . اننا لا نكاد نولد بشراً ولكننا نصير كذلك بما تسبغه البشرية علينا بمئات الوسائل والطرق التي تنقل من الماضي الى الحاضر ذلك الارث الثقافي الذي رفع البشر اليوم رغم مافيهم من معتوهين وجهال ، الى مستوى لم يبلغه جيل آخر من قبل

الكتابة والطباعة

هنا نحذلنا محيلنا لا نستطيع ان نتصور حالة العصور التي سبقت استنباط الكتابة فلما كان الناس لا يستطيعون ان ينقلوا اختباراتهم الا بالكلمة الشفوية من الوالد الى الولد . فاذا نسي جيل ما تلقن او اساء فهمه اضطر ان يعود الى سلم المعرفة من اسفله ليتسلقه من جديد . فجاءت الكتابة معجزة سهيل البقاء لما في العقل . انها حفظت لنا في اثناء قرون من الفقر والجهل والوهم كنوز الحكمة التي كشفت عنها الفلسفة وآثار الخيال المرسومة في الدراما والشعر . انها ربطت الاجيال المتعاقبة برابطة التراث المشترك وخلقت بلاداً جديدة هي بلاد العقل التي لا يموت فيها النوع

وكما ربطت الكتابة الاجيال المتعاقبة تربط الطباعة الحضارات ، قد تغير الحضارة موطنها ولكنها لن تزول من وجه الارض الا بزوال الارض . فاذا حدث لها ما دمرها في بلاد ما كحرب او جفاف او جليد او وباء فيمكنها ان تزدهر في بلاد اخرى لان كل اسبابها واساليبها مدونة في الكتب التي تداولها الامم . ليست الحضارة عبداً فدنياً مرتبطاً بالارض التي ولد عليها ولكنها مجموعة من المعرفة الصناعية والابداع الفني . فاذا كان في الامكان انتقال هذه المعرفة وذلك الابداع الى موطن جديد فلا يصح القول بان الحضارة زالت لانها انما غيرت موطنها . ولا يستحق الخلود الا الجمال والحكمة . فالفيلسوف لا يهمه ان تخلد مدينته التي ولد فيها اذا اتيح لما تبقى ان تنتقل من جيل الى جيل حتى تصبح جزءاً من الارث الانساني المشترك